

التفسير المختصر - سورة الأنفال (٠٨) - الدرس (٦-٢) : تفسير الآياتان ٢١-٢٢ ، ٢٠-٢١ ، سلوك الإنسان الحقيقى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-٠٧-١٦

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين وبعد.  
أيها الإخوة الكرام ؛ في سورة الأنفال آيات، وهذه الآيات أرقامها عشرون وواحدة وعشرون  
واثنتان وعشرون ؛ يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلُوا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠)  
﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢١)  
﴿إِنَّ شَرَ الدُّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمْ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢)  
﴿وَلَوْ عِلْمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلُوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣)

من أدق الآيات المتعلقة بالسماع:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلُوا عَنْهُ﴾

تعرضوا عنه، لا تدبروا ظهوركم لهذه الدعوة، لا تتصرفوا عنها، هي تولوا عنه.

﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠)

يعني كتاب الله يتنى عليكم صباحاً ومساءً، تستمع لهذا الكتاب، بالمناسبات الحزينة، في عقود القرآن أحياناً، تسمع في الإذاعة أحياناً، تقرؤه كل يوم، أنت بين يديك كتاب الله عز وجل، إذا أردت أن تخاطب الله فادعه، وإن أردت أن يخاطبك الله فاقرأ القرآن.

﴿لَا تَوَلُوا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠)

مثلاً إنسان يقرأ القرآن، يستمع للقرآن، بلغه القرآن، يفهم القرآن، ثم تجده يتعامل في بيته وفي تجارته بخلاف أحكام القرآن.

لذلك ورد في الحديث أنه:

((ما آمن بالقرآن من استحل محارمه ما آمن بالقرآن من استحل محارمه))

وورد أيضاً:

((رُبَّ تَالٌ لِلْقُرْآنِ وَالْقُرْآنِ يَلْعَنُهُ))

وإذا قلت: صدق الله العظيم، ولم تكن مطابقاً لأحكام القرآن، فهذا كلام منك غير صحيح، أنت ما صدقته، أنت في الحقيقة تكذبه.

والاتجاه الجديد حالياً في العالم كله، أن الإنسان لا يُقيم أبداً من أقواله ولا من معتقداته، بل يُقيّم فقط من سلوكه، لأن سلوك الإنسان هو الترجمة الحقيقة لمعتقداته وتصوراته، فإذا قال إنسان: أنا مؤمن بالله، وأسعى للأخرة، وأخاف دخول جهنم، ولم تر في عمله ما يؤكّد ذلك فهو كاذب. فبالسلوك إذا التقييم الحقيقي، لأن رفع الشعار سهل، الادعاء سهل، دعوة الانتماء سهلة، كل

إنسان لسانه يتكلم كما يشاء لكثرة الكذب والدجل والتزوير والانتقامات الباطلة، والادعاءات الفارغة لدى الناس.

لذلك اتجه الناس الآن إلى تقييم الإنسان لا من أقواله، ولا من تصوراته، ولا من إشاراته، ولا من لفقاته، بل من عمله فقط، هذا المعنى تؤكد له الآية:

﴿بِاٰيَٰهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطْبَعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلُّوْا عَنْهُ وَأَتُّمْ تَسْمَعُونَ (٢٠)﴾

أي تسمع القرآن، والآية الأخرى تقول:

﴿قُلْ لِّمُؤْمِنِينَ يَغْضُوْا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾

(سورة النور: ٣٠)

فكيف تطلق بصرك في الحرام، والآية تقول:

﴿وَلَعَبْدُ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبْكُمْ﴾

(سورة البقرة: ٢٢١)

كيف ترضي لابنك زوجاً غنياً ولا يصلى، وليس فيه دين.  
والله عز وجل قال أيضاً:

﴿يَمْحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾

(سورة البقرة: ٢٧٦)

فكيف تتعامل تعاملًا ربوياً.

والله عز وجل يقول:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُرْكِيَّهُمْ﴾

(سورة التوبة: ١٠٣)

فكيف تنصر في دفع الزكاة.

والله عز وجل يقول:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾

(سورة يوسف: ٥٢)

فكيف تحتم على بعض الناس؟.

إن القرآن بين أيدينا، وعلى الإنسان أن يكون صادقاً مع نفسه، يعني هذه النشاطات الفارغة، كل عبادة لا تكلف شيئاً يبادر لها، أما عند الدفع، عند الحلال، عند الحرام، عند الأخذ، عند العطاء، عند أداء الحقوق، عند الاعتراف بالحقوق يقول: عليك بالمحاكم، وهذا شأن المؤمن؟ يقول لك: هذه المحاكم أمامك، يجب أن تؤدي الحق من دون دعوى إن كنت مؤمناً، ومن دون محكمة، فالمؤمن وقف عند القرآن، يؤدي كل حق عليه.

﴿وَلَا تَوَلُّوْا عَنْهُ وَأَتُّمْ تَسْمَعُونَ (٢٠)﴾

الآية التي بعدها:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١)﴾

ذكرت هذا قبل فترة في بعض أحاديثي، ماذا أراد الله بكلمة أتنا سمعنا؟! وقد ذكرت يومها مثلاً يوضح الآية.

إذا شاهد شخص على كتف صديقه عرقاً، وقال له: العقرب العقرب ، فالذى على كتفه العقرب قال بهدوء وراحة وبساطة: أنا أشكرك أشد الشكر على هذه الملاحظة القيمة، وأنا لا أملك إلا أن أعبر عن تقديرى الجزيل لهذه الفتة البارعة، فقد سمع ما قال له، وحضره، فإذا بقى هادئاً، فعلّ اهتزاز الصوت وصل إلى طبلة أذنه ولم يفهم شيئاً، فالعلماء يفرقون بين الصوت والكلام، ممك أن تسمع ضجيجاً، وممك أن تسمع من بعيد إنساناً يتكلم، لكنك لم تفهم من كلامه شيئاً، فهذا يعني صوتاً، اهتزاز بوسط مرن، هذا هو الصوت، لكن مضمون هذا الصوت هل فهمته؟ لا.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢١)

يعنى أن الله عز وجل أراد بالسماع التطبيق، شيء طبيعي إذا قيل لإنسان: على كتفك عقرب فانتبه، أن يقفز، ويهبب واقفاً، وأن ترتعد مفاصله، وبعد أن يزيله عن كتفه يقول: شكرأً، أما إذا جامله، معنى ذلك أنه ما سمع قوله، لقد سمع صوتاً، ولم يفقه له معنى.

فحينما يخاطب المؤمن خطاباً معيناً ولا يتحرك، فهذا المؤمن إن لم يتحرك فهذا لم يفهم من الخطاب شيئاً، نحن في ذكرى الهجرة هذه الأيام، والله عز وجل قال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَائِتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾

(سورة الأنفال: ٧٢)

إذا لم تأخذ موقفاً عملياً، وإذا لم تتحرك، ولم تقف موقفاً إيجابياً، ولا اندفعت، ولا أعطيت، ولا منعت، ولا وصلت، ولا قطعت، ولا غضبت، إن لم تتحرك، بناءً على معتقداتك، فهذا الاعتقاد السلبي الذي لا يقدم ولا يؤخر لا شأن له عند الله.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢١)

لو سمعت الحق لأمضيت الوقت كله في التقرب إلى الله عز وجل، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في بعض الأحاديث:

((إن روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول يا أهلي يا ولدي، لا تلعنكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فاللهناء لكم، والتبرع على. ))

جاء في الحديث الشريف أنه:

((ما من بيت، إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله، وانقطع رزقه، ألقى عليه غم الموت، فغضيته سكراته، فمن أهل البيت، الناشرة شعرها والضاربة وجهها، والصارخة بويلها، يقول ملك الموت: مم الفزع؟ ومم الجزع، ما أذهبت واحد منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، وإن لي فيكم لوعدة، ثم عودة، حتى لا أبقي منكم أحداً))  
يقول عليه الصلاة والسلام:

((فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ يَرَوْنَ مَكَانَهُ، وَيَسْمَعُونَ كَلَامَهُ، لَذَهَلُوا عَنْ مَيْتَهُمْ وَلَبِكُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ))

كثير ما تلاحظون أنه عندما يموت الإنسان، إذا كانت يده قابضة يفرجون، هو طبعاً في حزن معلن، يطيلون شعر ذوقهم، يلبسون الأسود، لكن عملياً يفرجون، لقد أخذوا الثروة، فهذا الذي فرح ألم يعلم أنه حين يموت سيفرح الآخرون مثل فرحة هو يوم أخذ الثروة.

منذ عدة سنوات توفي إنسان بهذه البلدة، وترك ألف مليون ! أحد الورثة نصيه مئة وعشرون مليوناً، ترك عمله، وترك محله التجاري، وشمر وبدأ يتبع حصر الإرث، إنه مبلغ ضخم، لم يدخل إلى محله التجاري ستة أشهر، وهو يتبع معاملة الميراث، وفي أحد الأيام دخل الحمام ليغسل فسقط ميتاً، قبل أن يأخذ قرشاً واحداً.

هذه الحياة، فلذلك على الإنسان أن يحتاط.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١)﴾

معنى ذلك أن الله عز وجل يعني بالسمع أن تستجيب، أعطاك أمراً لتنفيذـه، هذا السماع، وإلا فهذا الإنسان ميت إن لم ينفذ الأمر، ثم يقول الله عز وجل - يا لطيف ما أدق هذه الآية:

﴿إِنَّ شَرَّ الدُّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكُّمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾

يوصف بأنه ذو ضرس طيب، أذواقه في الدنيا عالية، يعرف من أين تؤكل الكتف، قناص درجة أولى، يأخذ حقه حق غيره، لسانه له سبع سلطات، أما عند معرفة الحقوق، وعدد معرفة الله، فهو جاهل.

﴿إِنَّ شَرَّ الدُّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكُّمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾

مرة النقيت شخصاً أجنبياً، قلت: لعلى ألقى على سمعه بعض الكلمات التي تذكره بالله عز وجل، فذكرت له كلاماً موجزاً عن عظمة الخالق، ففوجئت أنه يقول لي: هذه الموضوعات لا تعنيني، ولا أهتم لها، ولا ألقى لها بالاً، لا يعنيني إلا ثلاثة أشياء ؛ بيتٌ واسع، سيارةٌ فاخرة، وامرأةٌ جميلة.

طيلة حياتي ما تذوقت هذه الآية، كما تذوقتها حينما سمعت كلامه، قال سبحانه:

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾

وقال عز وجل:

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَا﴾

(سورة النحل: ٢١)

شخص عربي مسلم جلس في أمريكا بحديقة عامة، وجلس إلى جانبه رجل أمريكي الأصل، وهذا المسلم العربي لونه غامق، فسألـه الأمريكي: أنت من هنا ؟ ولو قال له: نعم لما كلـمه إطلاقاً، بسبب التفرقة العنصرية في تلكـالبلاد، قال له: أنا من الشرق، من أين ؟ قال: من البلد الفلاني، قال: أنا مسلم، قال له: حدثـي عن الإسلام، هذا رجل عالم، فشـمر وبدأ يعطيـه خـلال ساعـة

خلاصةً مركزةً عن الإسلام، بعد أن انتهى، مذيده إلى جيده وأخرج دولاراً، ثم قال له: أمّا أنا فهذا هو ربّي.

﴿وَلَوْ عِلْمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾

يعني إذا كان الشخص فيه خير من تلك البلاد فلا بد أن يسوقه الله إلى بلد مسلم، أو أن الله يدخله عليه، فهذه الآية دقيقة، يقول بعض الناس: هؤلاء قد تركهم الله وشأنهم، ليس هذا صحيحاً:

﴿وَلَوْ عِلْمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾

هذه الآية فيها بشرى لنا جميعاً، إذا سمع الله شخصاً الحقّ فماذا يفهم من ذلك؟ أن الله علم فيه خيراً، المعنى المخالف.

﴿وَلَوْ عِلْمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾

طبعاً ما أسمعهم، لأنّه لم يعلم فيهم خيراً، فإذا سمع الله عبداً الحقّ، فماذا يعني ذلك؟ أنه علم فيه خيراً، لمجرد أن الله سبحانه وتعالى، شاعت حكمته أن تولد أنت في بلاد المسلمين، وهذه رحمة من الله عز وجل.

أحد إخواننا كان في بلد أجنبي، يعمل سائق تكسي، ركبت معه امرأة وهي تبكي، وهو يقود السيارة، سألته لم تسألي عن سبب بكائي؟ فقال لها: هذا لا يعنيوني، قالت له: أبي يمارس معي الجنس منذ عشرين عاماً، واليوم قدمت في حقه شكوى، فقد كان زنى المحارم شائعاً هناك.

﴿وَلَوْ عِلْمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُغْرِضُونَ﴾ (٢٣)

إذا:

﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُغْرِضُونَ﴾ (٢٤)

هذه الآيات دقيقة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلُّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢١) إِنَّ شَرَ الدَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكُّمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢)  
يعني شر الدواب، "شر" اسم تقضيل، شر دابة على وجه الأرض، الذي يأكل ويشرب، ويستمتع، لكنه لا يعقل، لا يسمع ولا يفكّر.

﴿الصُّمُّ الْبُكُّمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢) وَلَوْ عِلْمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ

وليس فيهم الخير.

﴿لَتَوَلَّوْا﴾

هذه الآية قد تذوقتها، عندما قال لي الأجنبي، هذه الموضوعات لا تعنيني أبداً، ولا أهتم لها، يعنيني زوجة جميلة، وبيت واسع، و سيارة فاخرة، فقط، فلا ترهق نفسك معي ولا تتعب.

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُغْرِضُونَ﴾ (٢٣)

السماع عند الله ماذا يعني؟ التطبيق، وإن لم تطبق بما سمعت شيئاً، السماع يعني التطبيق، الآيات بين أيدينا، القرآن بين أيدينا، الله يسره، نقرؤه وقد طبع بخط جميل، تسمعه بشرطه،

وتسمعه بمولد، وتسمعه في تعزية، هذا شيءٌ دقيق، لكنَّ السَّماع عند الله يعني التطبيق، فإنْ لم تطبق فأنت لم تسمع ولم تفهم.

**والحمد لله رب العالمين**